

الطفولة المبكرة وخصائصها

أ. بن حميدة هند،

أستاذة مساعدة بقسم علم الاجتماع،
معهد العلوم الاجتماعية والإنسانية،
المركز الجامعي مصطفى إسماعيل، معسكر.

مقدمة:

إن اهتمام العلم بدراسة مظاهر النمو وتركيزه على فهم وتحديد العوامل المؤثرة فيه، لدليل على أن النمو هو بحد ذاته من العناصر الأساسية التي تحرك الشخصية نحو الصحة أو المرض. ولما كان النمو عملية تلازم كل فرد منذ ولادته وتواكبه في كل دور من أدوار حياته، كان من الطبيعي أن يُبدي علم النفس حماساً زائداً لتكوين المفاهيم المتعلقة بالنمو، فكل مرحلة من مراحل النمو لها سيكولوجيتها الخاصة ومطالبها التي لا بد من مراعاتها كي لا يسير النمو في اتجاه مضاد، فكل تطور يطال النمو يتيح للفرد أفضل مستوى ممكن من التوافق الصحي والنفسي والاجتماعي.

أهمية مرحلة الطفولة المبكرة:

هي الفترة الممتدة من نهاية العام الثاني وحتى نهاية العام الخامس من ميلاد الطفل أي هي رحلة الطفل عبر العام الثالث والرابع والخامس. وتعتبر مرحلة الطفولة المبكرة من المراحل المهمة في حياة الإنسان والتي بدأها بالاعتماد الكامل على الغير ثم يرتقى في النمو نحو الاستقلال والاعتماد على الذات، ففي مرحلة الطفولة المبكرة يقل اعتماد الطفل على الكبار ويزداد اعتماده على نفسه وذاته ويتم فيها الانتقال من بيئة المنزل إلى بيئة الحضنة ورياض الأطفال حيث يبدأ في التفاعل مع البيئة الخارجية والمحيط به، مما يمكنه من التعامل بوضوح مع بيئته مقارنة بمرحلة المهد. وفي هذه المرحلة تبدأ عملية التنشئة الاجتماعية وإكساب القيم والاتجاهات، والعادات الاجتماعية ويتعلم فيها التمييز بين الصواب والخطأ وإن كان لا يفهم لماذا هو صواب أو خطأ.

خصائص النمو في مرحلة الطفولة المبكرة :

تتأثر مظاهر النمو فيما بينها حيث يؤثر جانب من النمو على الجانب الآخر وكل هذه الجوانب لها تأثير على الصحة النفسية والجسمية للطفل وفيما يلي مظاهر النمو وخصائصه :

1. النمو الجسمي والحركي:

« تتميز هذه المرحلة بزيادة الوزن بالنسبة للذكور والإناث، حيث يبلغ وزن الطفل في نهاية هذه المرحلة سبعة أمثال وزنه عند الولادة. غير أن الذكور أكثر تفوقاً من الإناث في هذه الزيادة، وتنتج هذه الزيادة نتيجة نمو العضلات وخاصة العضلات الكبيرة التي تساهم في تيسير حركة الطفل وتسهيل القيام ببعض الأنشطة التي لا تحتاج إلى دقة وتركيز» (1). وبالنسبة

للعظام فتزداد في النمو، محولة شكل الطفل الرضيع إلى شكل الطفل الصغير، كما أن استمرار النمو في منطقة الجذع والأطراف تعطي الطفل مظهر أكثر خطية وأقل استدارة. زيادة طول العظام تظهر في زيادة طول الطفل في هذه المرحلة حيث يصل إلى ضعف طوله في نهاية هذه المرحلة عن طوله عند الميلاد. أي أن صورة الجسم لدى الطفل تظهر بوضوح، ويكتمل في هذه المرحلة نمو الأسنان المؤقتة مما يمكن الطفل من تناول الطعام، وفي نهاية هذه المرحلة تبدأ الأسنان المؤقتة (اللبنية) بالسقوط إذناً ببداية ظهور الأسنان الدائمة، وينبغي على الوالدين تعليم الأطفال بعض السلوكيات الجيدة المساعدة على الاهتمام بالأسنان والحفاظ عليها من التسوس. وفي هذه المرحلة يستمر الجهاز العصبي في النمو ويتفوق نموه على سائر الأجهزة عند الطفل

وهذا يعني أن تقدم سن الطفل يؤدي إلى زيادة نضج الجهاز العصبي والذي يعمل وبشكل متسق مع الجهاز العضلي ليشكلاً تآزراً حركياً، كما أن نهاية مرحلة الطفولة المبكرة تتميز بتقارب الانتهاء من تكوين الدماغ للطفل من الناحية البنائية. حيث يستطيع طفل الثالثة الجري بسلاسة، والقفز كما يمكنه هذا التأخر من التحكم في حركته، فيسرع ويبطئ ويستدير ويقف فجأة بدون صعوبة، ويستطيع طفل الثالثة غسل يديه وتجفيفها والأكل بالمعلقة بنفسه. كما يستجيب الطفل لتوجيهات والديه والخاصة بقضاء الحاجة حيث أنه مهياً فسيولوجياً في هذه الفترة لضبط عملية الإخراج والتحكم فيها.

في سن الخامسة يستطيع الطفل السيطرة نوعاً ما على العضلات الدقيقة إلى حد ما حيث يتمكن من مسك القلم والمقص، ولكن هذا لا يعني استعدادهم للكتابة. نجد أن طفل الخامسة يستطيع أن يرسم خطوطاً مستقيمة في كل الاتجاهات. يحب أطفال الخامسة في العادة ممارسة الجري ولكن ليس لذات الجري ولكن لجعل الجري وسيلة لسبق أقرانه وفي بعض الأحيان من يكبرونهم.

ويتميز النمو الحركي للطفل في هذه المرحلة أيضاً بالتوجه نحو النضوج أكثر من ذي قبل، والقدرة على تحريك الطرف الحسي المناسب لتحقيق عمل أو فعل معين، وهذا يدل على زيادة النضج لدى الطفل. مما سبق يمكن القول بأن طفل هذه المرحلة يقوم بالعديد من المهارات اليدوية البسيطة والتي تظهر في ارتداء الملابس وتمشيط الشعر والاستحمام واستخدام اليد في الدق بالمطرقة ونحو ذلك، كما يقوم الطفل بمهارات الساقين وهي عبارة عن مجموعة من الحركات والتي يستخدم فيها رجل واحدة أو الرجلين معاً.

2- النمو الانفعالي :

يشهد النمو الانفعالي تطوراً ملحوظاً خلال السنوات الأولى من عمر الطفل وقد اتضح أن النمو يشمل التغيير والنضج مع تقدم العمر ليصبح الفرد أكثر قدرة على ضبط الانفعالات. »

وكل طفل قابل للاستثارة الانفعالية فهو يتوتر بسرعة ويهدأ بسرعة، ورغم محدودية الوعي والإدراك في هذه السن، إلا أننا نلاحظ قوة الانفعالات والعواطف» (2)، «فالطفل يستطيع أن يميز مشاعر الآخرين نحوه، خصوصاً أمه، فإذا شعر أنه محروم من حبها تألم وأحس بالضيق وبدأ يبحث عن وسيلة ليفوز بحبها» (3). وأكثر ما يؤلم الصغير ويثيره انفعالياً الشعور بالغيرة.

فإذا لاحظ أن أمه مثلاً تفضل شقيقه عليه وتوليّه عناية خاصة فيما لا يلقي هو منها العناية نفسها، شعر بالحسد والغيرة من أخيه واستقرّ في علاقة مضطربة معه، تعبيراً عن غيخته، فيتخذ موقفاً عدائياً ممن يسبّب له هذا الشعور. فالطفل لا يستطيع أن يستوعب العناية الزائدة بشقيقه نظراً لصغر سنّه، وكثيراً ما تعاقب الأمهات الطفل الغيور على سلوكه، ويغيب عنهن أن هذا التصرف يؤذي الطفل معنوياً ويؤدي إلى ردود فعل سلبية تنعكس على سلوكه. والمفروض أن تشرح الأم لطفلها السبب الذي يجعلها تولي شقيقه عناية خاصة، وأن تردّد أمامه بأنها تحبه كشقيقه تماماً ليشعر بالطمأنينة ويعود عن غيخته، فالإهمال والحرمان يُشعران الطفل بالنقص والدونية ويتسببان في إحداث شرح عميق في نفسه .

ونحن نعلم أن الطفولة حقبة تأسيسية وكل ما ينشأ عليه الطفل تترسّب آثاره في نفسه وتبقى راسخة حتى يكبر، فإذا تعرّض لخبرات ومواقف محبطة تأذى نفسياً وبدلاً من أن يطلّ على المستقبل بشخصية مرنة، متفائلة، يواجه مجتمعه بشخصية مضطربة، انغزالية، مريضة تعاني من الضياع والتشاؤم والتشتت.

الحاجة إلى الاستقرار :

يتأثر النمو الانفعالي بالصحة الجسمية العامة وبشكل المرض وسوء التغذية خطورة عليه، كما يتأثر بالنمط الانفعالي للأسرة (الأم والأب بصورة خاصة)، وبالأجواء الأسرية المضطربة... هذا ما أكده الباحثون.. فغالباً ما يتطبع الطفل بطباع والديه ويقتدي بسلوكهما، فهما بالنسبة إليه المثال والقُدوة... يرث عنهما سلوكه الانفعالي، فإذا وجد أمه تتصرف بعصبية وغضب قام بتقليدها لقناعته بأن ما يأتي عن سلوكها هو الصواب. وهو يقلّد أيضاً والده ويقتدي بسلوكه. وبالتالي، إذا شبّ الطفل في أجواء أسرية مشحونة بالخلافات والنزاعات، ينعدم فيها الاستقرار، مال إلى التشاؤم وفقد ثقته بأفراد أسرته، فمثل هذه الأجواء لا يحصد الطفل من ثمارها إلا القلق والتوتر وسوء التكيف الانفعالي والعلائقي والشعور بأنه يعجز عن التأقلم مع واقعه، فالطفل يحتاج إلى الحب والاستقرار كما يحتاج إلى الماء والهواء والغذاء، فإذا تربّى في أجواء حميمة، يسودها الدفء والحب والطمأنينة عرف السلام الداخلي وكان مثالياً في سلوكه وفي تعاطيه مع الآخرين. إذن، الأسرة بسلوكها تحدّد للطفل قواعد التصرف، فهو يتخلّق بأخلاق أبويه بكل ما تزخر به من مزايا حسنة أو سيئة.. والإحساس بالطمأنينة يعطيه الحافز لتحمل المسؤولية والمشاركة البناءة.

ومن جانب آخر، تكون ردود أفعال الطفل بين سن الثالثة والتاسعة الانفعالية أكثر عمقاً وحدة، لأنه كلما كبر وعرفت قواه الحسية والإدراكية نمواً وتطوراً كلما أصبح أكثر وعياً وفهماً لما يدور حوله، وفي هذه المرحلة العمرية تتكون العواطف والعادات الانفعالية لتأخذ شكلاً أو اتجاهًا: حب أو كره أو عناد و غضب وتمرد وتحدي، أو هدوء ولين وخجل... الخ.

وتتسع دائرة الحب بالتدرج فهو يكون موجهاً بشكل خاص نحو الأم والأب والأشخاص الذين يحققون حاجات الطفل ليشمل في ما بعد الغرباء. ويلعب التعلم في هذا العمر دوراً هاماً، حيث يتعلم الطفل انفعال الخوف من الكبار، مثل الخوف من الوحدة، والظلام والخوف من الحيوان... الخ، لذلك، يجب ألا نظهر خوفنا أمام الطفل وأن نعالج مخاوفه من خلال تصحيح مفاهيمه تجاه المصادر التي تعلم أن يخاف منها وعن طريق ربط الشيء المخيف بأشياء أخرى سارة مثل أن نوضح له، أن الظلام ما هو إلا محطة زمنية نطل منها على فجر يوم جديد مشرق وجميل، وأن الحيوانات لا تؤذي إلا من يؤذيها وأكثرها أليف ونستطيع الاستفادة منه، كما يجب أن نساعد ليتجاوز إحساسه بالخوف من البقاء وحيداً ونعلمه أن يستغل فترة بقائه وحيداً بالقيام بعمل مفيد مثل الرسم. فالرسم يتيح للطفل فرصة التفريغ الانفعالي، ورسوم الصغار إنما هي تعبير عن حالتهم النفسية، فحين يرسم الطفل خطوطاً مستقيمة منظمة ودوائر ملونة بألوان هادئة فذلك يدل على استقراره النفسي والانفعالي، أما الخطوط المتقطعة والألوان الحادة فهي توضح الصراع الداخلي وتشتت التفكير، أما إذا اعتمد الطفل اللون الأسود لتلوين رسومه فإنما هو بذلك يعبر عن خوفه من أمور محددة، وعن اضطرابه وتشاؤمه. وحين نلاحظ أن الطفل بدأ يتخلص من عاداته وأفكاره الطفولية التي كان متشبهاً بها يكون قد بدأ يعيش مرحلة الاستقرار الانفعالي.

3- النمو العقلي:

يتأثر النمو العقلي بصفة عامة بالمناخ الثقافي للأسرة والوضع الصحي العام والظروف البيئية والدافعية والخبرات المتاحة لنمو المفاهيم وهو يشمل: الذكاء والتفكير والتخيل والتذكر والميل الإبداعي. وحتى سن الثالثة يكون التفكير متمركزاً حول الذات وتتقصر الموضوعية في الفهم والإدراك، وتلاحظ في هذه المرحلة قوة الخيال «(4)، حيث يطغي خيال الطفل على الحقيقة ويكون خصباً فياضاً يملأ عن طريقه فجوات مفاهيمه، وبعد سن الثالثة ومع بداية مرحلة التعلم تزداد قدرة الطفل على الفهم والتحصيل المعرفي ويزداد تركيز الانتباه والملاحظة والتذكر وينمو الإدراك ويصبح أكثر وضوحاً وموضوعية ويبدأ الطفل بتكوين المفاهيم الصحيحة. وبين سن الثالثة والتاسعة تتوسع الاهتمامات العقلية وينمو حب الاستطلاع والحماس والاندفاع لمعرفة معلوماتية تنمي ثروته الفكرية، ويطرّد نمو الذكاء الذي يعتبر المادة الخام التي يُعتمد عليها لتحقيق التفوق، كما يتضح التخيل الواقعي - الإبداعي. ويعتبر الذكاء من أهم معايير النمو العقلي فهو يؤثر تأثيراً إيجابياً مساعداً للنمو العقلي المعرفي،

فالمستوى العام للتوافق العقلي تحدده درجة الذكاء التي يتمتع بها الطفل. ويجب على الأبوين والمربين مراعاة ما يلي:

. مساعدة الطفل لتكوين مفاهيم صحيحة وتزويده بقدر مناسب من المعلومات المتناسبة مع سنّه
لتنمية تفكيره من الذاتية المركزة إلى الموضوعية التي عن طريقها تنمو اتجاهاته الفكرية نمواً ناضجاً
يوقظ لديه قدراته الإبداعية، ويمكنه من عبور الهوة بين عالمه الخيالي وبين العالم الواقعي بسلام...
. كما يجب إتاحة الفرص أمام الطفل ليكتشف ويجرب ويختبر الصواب من الخطأ، ومنحه
فرصاً جيدة لتطوير مهاراته الإبداعية، وعدم إهمال أسئلته أو تجنب الإجابة عنها مهما كانت محرّجة،
فالإجابة عن أسئلته هي المدخل الذي يصل عبره لمعرفة مفيدة، فالطفل يريد أن يفهم ويستوضح، فكل ما
يدور حوله هو بالنسبة إليه علامة استفهام .

. إضافة إلى ضرورة تعليم الأطفال كيف يناسب طرح السؤال، ومتى يسأل؟ كما نحذرهم من
خطورة تكديس المعلومات الخاطئة في عقول الأطفال، لأن ذلك يقمع نمو المفاهيم الصحيحة.. وحبذا لو
واجهنا الطفل في جميع مراحل نموه بانجاز نشاطات تتطلب مهارة ذهنية وعقلية تتناسب في درجة صعوبتها
مع مستوى نضجه، فلا تكون سهلة لا تحتاج إلى مرونة فكرية ولا صعبة تعجز الطفل وتُشعره بالفشل.

4-النمو الاجتماعي

تتوقف استجابات النمو الاجتماعي على عوامل متعددة منها: الجو الأسري العام والخلفية
الثقافية للأسرة واتجاهات الوالدين والطبقة الاجتماعية التي ينشأ فيها الطفل، وللتربية والتثنية تأثير
كبير على النمو الاجتماعي عند الأطفال. وعندما نتحدث عن النمو الاجتماعي إنما نتحدث عن عملية تعلم
وتطبع خلقي وسلوكي تتم في بيئة، والأسرة هي البيئة الأولى التي يكتسب فيها الطفل معايير واتجاهاته
وقيمه، ويزداد وعيه بالبيئة الاجتماعية ومن خلالها تتكوّن طباعه. وأكثر ما يحتاج إليه الطفل لمواجهة
الحياة بشخصية مشبعة بالإيجابيات والثقة بالنفس والشعور بالانتماء، والتوافق الانفعالي ليكون إيجابياً
في مشاركاته ومثالياً في تفاعله العلائقي. وتدّل الدراسات أن التثنية هي الركيزة الأساسية للنمو
الاجتماعي وعن طريقها يتكوّن الوعي وتتشكل خصائص الشخصية.

وفي تنشئة الأطفال، على الوالدين والمربين مراعاة ما يلي: تعليم الطفل مفاهيم الصدق والأمانة
والتسامح وآداب التصرف وتوجيه سلوكه وتهذيبه، ومساعدة الطفل للسيطرة على انفعالاته التي تؤثر
بدورها على نموه الاجتماعي، مع الأخذ في الاعتبار أن العقاب الشرطي وسيلة هزيلة للإصلاح، فالقسوة
والعقاب قد يجعلان الطفل يتمسك بالعادات غير المرغوب فيها اجتماعياً (العناد، التمرد، الكذب.. الخ).
كما يجب على الأبوين احترام شخصية الطفل كفرد في حد ذاته، وإشباع حاجاته، فالشعور بالكفاية
يتيح للطفل فرص التواصل الموضوعي ويرسخ لديه القيم الكفيلة بأن تعدّل اتجاهاته وتوجهها الوجهة
الإيجابية.

وكذلك يتأثر النمو الاجتماعي بالجو النفسي للأسرة ودرجة النضج الشخصي للوالدين
وسلوكهما. ويعتبر السلوك الأسري نموذجاً يحتذي به الطفل، فالطفل الذي ينشأ بين والدين محبين
متسامحين يشبّ مثلهما، أما الطفل الذي يتربى بين أبوين يتسمان بطابع الكراهية والقسوة والعنف
وعاجزان عن الرحمة والتسامح يشبّ على ما تعود عليه من سلوك ويتزوّد به. ففي تربية الأطفال يجب أن

يُراعي الكبار أنفسهم آداب السلوك حتى يكونوا قدوة حسنة، كما يجب تنمية الضمير الحي القوي عند الطفل وزيادة التركيز عليه، وإرشاد الطفل ليتصرف بوازع من ضميره ليسلم من الغوص في شباك الكذب والغش وخداع الآخرين.. الخ، فالطفل كما يحتاج إلى أن ينمو في أجواء أسرية مستقرة، يحتاج أيضاً إلى رقابة الكبار ورعايتهم كي لا يخرج صفر اليدين من تنشئة أسرية المفروض أن تتوافر فيها المقومات التي تسند خطواته وتؤمن له تواصل اجتماعياً آمناً. « كما أن الطفل ينتقل في هذه المرحلة إلى تعلم إقامة العلاقات الاجتماعية والتوافق مع الناس خارج البيت خاصة مع الأطفال ممن هم في سنه ويجب ملاحظة أن نجاح نمو الطفل في المستقبل يتوقف على هذه المرحلة من عمره أين يتعلم العمليات الأولى للاتصال بالأطفال الآخرين كما أن الوقت الذي يقضيه مع الكبار يقل كلما تقدم في العمر ويزداد في نفس الوقت اتصاله بأقرانه ويجد المتعة في تواجده معهم وتزداد رغبته في الاستقلالية عن الكبار»(5).

النمو اللغوي:

يكون النمو اللغوي في أسرع مراحل في الطفولة المبكرة ويساعد الطفل على التعبير عن ذاته وتكوين العلاقات الاجتماعية والتفاعل مع المحيطين به كما يسهل النمو العقلي والمعرفي للطفل. فاللغة هي نتاج النمو العقلي ودليل عليه، ويمكن القول بأن الطفل لا يمكنه أن يعكس على شكل لغة سوى الأشياء والأفكار الممثلة في ذاكرته فهو لا يستطيع أن يستعمل كلمات أو جمل ذات معاني أبعد من مستواه المعرفي، أي أن هناك ترابطاً كبيراً جداً بين النمو اللغوي والمعرف. فكلما زاد نمو الطفل عقلياً نجد أن فهمه للكلمات يزداد، «عند بلوغ الطفل السنتين من عمره يبدأ في استعمال ضمائر مثل أنا أنت وبعدها يصبح لديه حصيلة من الكلمات ويتكلم باستمرار بعد ذلك يبدأ جهازه الصوتي بالانتظام وتحتفي المهمة كما يتعلم كلمات جديدة كل شهر أو شهرين فيتعلم عن طريق جمع الكلمات مع الإشارات لكل نشاط روتيني من الحياة اليومية. يتعلم الطفل بشكل أفضل عندما يتشارك مع الآخرين أي عندما يشرح له الأهل ما يقومون به أو ما يودون القيام به بصحبته»(6). تعتبر البنات أسرع في التكلم من الذكور

خاتمة :

إن الاهتمام بدراسة مراحل النمو في الطفولة هو في الواقع اهتمام بالمجتمع وتقدمه وتطوره لأن أطفال اليوم هم شباب الغد ورجال المستقبل، وبقدر إعدادهم الإعداد السليم للحياة بقدر ضمان المستقبل والتقدم والحضارة للأمة، والحكم على المجتمع ليس بما تتوفر لديه من إمكانيات مادية بقدر ما هو بما تتوفر عليه من ثروة بشرية.

الهوامش:

- 1- ميخائيل معوض خليل. "سيكولوجية النمو الطفولة والمراهقة. شركة الجلال للطباعة. العامرية مصر. 2003. ص197.
- 2- سميج أبو مغلي. عبد الحافظ سلامة. أبو رداحة فدوى. التنشئة الاجتماعية للطفل. دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع. عمان. 2002. ص43.
- 3- منى فياض. الطفل ولاتربية المدرسية في الفضاء الاسري والثقافي. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط 1. 2004. ص127.
- 4- ميخائيل معوض خليل. سيكولوجية النمو الطفولة والمراهقة. شركة الجلال للطباعة. العامرية. مصر. 2003. ص207.
- 5- مريوحة بولحيال نوار. محاضرات في علم اجتماع التربية. الجزء I. دار الغرب للنشر والتوزيع. وهران. 2004 - 2005 ص209.
- 6- منى فياض. الطفل والتربية المدرسية في الفضاء الاسري والثقافي. المركز الثقافي العربي. بيروت. ط 1. 2004. ص121 - 122.